

## الدواوين في الدولة العربية الإسلامية

عبد الغفار نصر \*

ذكر أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشاري في كتابه الموسوم "أحسن التقاسيم في معرفة أقاليم" أن المملكة الإسلامية يبلغ امتدادها 2600 فرسخاً من أقصى المشرق عند "كاشغر" إلى السوس الأقصى على شاطئ بحر الظلمات غرباً، وتمتد عرضاً من شاطئ بحر قزوين إلى أواخر بلاد النوبة.

كانت هذه البلاد الواسعة قد دانت لبني أمية، وقد بسطوا نفوذهم ونشروا فيها دينهم وعلا شأنهم لولا أسلوبهم في الرياسة والقيادة وتعصبهم، وقبليتهم التي سببت لهم الفتن والثورات في جميع هذه الأصقاع. لو لا ذلك لاستمر العرب المسلمون سادة التاريخ.

لا- بدّ لهذه المملكة المترامية الأطراف من أن تكون مقسمة إلى أقسام كبرى -أقاليم وكور- يسهل رعايتها وجبي خراجها ومقارعة الخصوم لها.

فقد جمعت اللغات واللهجات والحضارات المتباينة والتقاليد المختلفة بين أقصى المشرق والمغرب من فرس وأكراد وهنود وبربر وأسبان، وأقباط، سادت فيها اللغة العربية في معظم الأقاليم. ووزع الخلفاء ولاتهم بين ظالم ومعتدل، في نشر الدين، أو في جبي الخراج وبعض الولاية يبسطون نفوذهم على أكثر من إقليم على شاكلة الحجاج بن يوسف الثقفي الذي جمع له بنو أمية العراقان وفارس، فقد كان أمير الشرق كله من نهر الفرات إلى نهر جيحون، كما كانت أفريقية كلها تتبع والي مصر أحياناً، على حين لم تجتمع الجزيرة العربية كلها لوال واحد بل كان للحجاز والي، ولليمن والي (1).

### تعريف الدواوين وتعريبها

يعود اسم ديوان إلى لغة الفرس. يقال أن كسرى نظر يوماً إلى كُتّاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يُحادثون فقال: "ديوانه" أي مجانيين بلغة الفرس (2). فسمي موضعهم بذلك وحُذفت الهاء لكثرة الاستعمال، ودرج اسم ديوان على ألسنة الناس، وتقول العامة يجلسون دواوين أو يعملون ديواناً على فلان وفلان أي، يتناولونه في غيابته. أورد البلاذري: "لم يزل ديوان الشام بالرومية حتى ولي عبدالملك بن مروان، فلما كانت سنة 81هـ أمر بنقله، وذلك أن رجلاً من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً فلم يجد ماءً، فبال في الدواة، فبلغ ذلك عبدالملك فأدّبه، وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان، فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة، ففعل ذلك وولاه الأردن فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله، وأتى به عبدالملك فدعا "بسرجون" كاتبه فعرض ذلك عليه، فغمّه وخرج من عنده كئيباً، فلقبه قوم من كتاب الروم فقال: أطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة (3).

وفي إقليم العراق كانت الدواوين بالفارسية إلى زمن الحجاج بن يوسف وقيل: أنه أمر بتعريبها، وقول آخر: أن عبد الملك هو الذي أمر بنقل الدواوين من الفارسية إلى العربية. ويذكر البلاذري والجهشياري أن عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد كان يقول: "لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب" (4). وصالح هذا كاتب الحجاج بن يوسف الثقفي الذي نقل له ما كان يفعله كتّاب الفرس ورغبتهم في الإبقاء على دواوين الدولة بلغتهم. ويذكر ابن خلدون أن أول من وضع الديوان في الدولة الإسلامية عمر t يقال: لسبب مالي أتى به أبو هريرة t من البحرين فاستكثروه وتعبوا في قسمه، فأشار خالد بن الوليد بالديوان، كان رأى ملوك الشام يدونون، فقبل عمر، ورواية أخرى تقول: أشار عليه الهرمزان (5)، فقد كانت بلاد فارس تدون البعوث والمال.

أما الدواوين في مصر فقد كانت باليونانية إلى عهد الوليد بن عبد الملك، وكانت القبطية إلى جانب اليونانية والعربية، فاليونانية لغة الدواوين تُذيل أحياناً الصفحات بالقبطية. أما اللغة العربية فكانت لغة الحكم إلى أن كانت ولاية عبد الله بن عبد الملك ابن مروان سنة 86هـ في عهد الوليد بن عبد الملك، الذي كان قد أمر بالقيام بعملية التعريب، وتأسيس النظم الإدارية والسياسية في جميع الأقاليم الإسلامية. لذلك اعتبر الخليفة عبد الملك المؤسس الحقيقي لنظم الإدارة والسياسة في أنحاء المملكة الإسلامية.

### الدواوين في العصرين الراشدي والأموي

اختلفت تعدد الدواوين من مصدر إلى آخر سواء في المصادر القديمة أم الحديثة التي تعتمد اعتماداً رئيسياً على القديمة وعلى مراجع المستشرقين وتحليلاتهم.

لقد فرض توسع العرب المسلمين في بلاد فارس، وشمال أفريقيا، استلزام أنظمة جديدة تتجاوز حدود الفيئ والغنيمة التي كانت بمثابة أعطيات عوضاً عن مرتبات شهرية فلم يعد النظام القبلي الذي عاشه العرب في جاهليتهم مقبولاً، فالانتقال من البدوية الصحراوية إلى المدنية المتحضرة، وجيوش تقاتل بدلاً من غزوة فيها مغنم كل ذلك أصبح لزاماً على الخليفة عمر أن يستفيد من نظم الدول المجاورة كالروم والفرس، فأقتبس نظام الديوان لضبط دخل الدولة ونفقاتها، وأصبحت مهمة الديوان على حد قول الماوردي: "حفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال" (6). وأورد ابن خلدون في المقدمة: "كانت العناية قديماً بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة" (7).

ويعتبر ديوان الجند أو الجيش المعروف بديوان العطاء من أقدم الدواوين في الدولة العربية فقد أنشأه عمر بن الخطاب t لتنظيم الجيش وتسجيل أسماء المجاهدين بادئاً بقريش وبطونها وأفخاذها ثم القبائل الأخرى كل قبيلة على إنفراد، وما ذلك إلا ليعلم عدد المقاتلة من كل قبيلة واستحقاقها ومعرفة أوقات اعطياتهم وتقدير أرزاقهم وتنظيم موازنة الدفاع ومقدار العطايا وتقسيم الفيئ على المسلمين (8). وفي العهد العباسي توسع هذا الديوان ليشمل أيضاً العسكر المنسوب إلى الخاصة والعسكر المنسوب إلى الخدمة، وجعلوا منه

قسمين أو مجلسين مجلس تقرير ومجلس مقابلة. ويتبين من ذلك بأن نظام الديوان الذي قام عليه في العهد الراشدي من حيث الترتيب العام يتكون من ثلاثة أسس متتالية:

- 1- أساس النسب والقرابة برسول الله قبيلة بعد قبيلة.
- 2- أساس السابقة في الإسلام وحسن الأثر في الدين.
- 3- التفضيل عند انقراض أهل السوابق بالتقدم في الشجاعة والبلاء في الجهاد(9).

ومن الدواوين الهامة التي إستحوذت على تقدير الخلفاء كان ديوان البريد، وعرف في العهد الراشدي صاحب البريد، الذي توسعت مهامه زمن الخليفة عمر، وذكر "محمد أسعد طلس" نقلاً عن السهيلي أن النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم- كان يكتب إلى أمرائه(10): إذا أردتم إليّ بريداً فابردوه حسن الوجه حسن الاسم وإنما طلب إليهم ذلك للتفاؤل وحسن التلقي. ويحكى أن الخليفة عمر بن الخطاب كان إذا استعمل رجلاً اشترط عليه أربعاً: "ألا- يركب يرذوناً، ولا- يلبس ثوباً رقيقاً، ولا يأكل نقيّاً، ولا يغلق بابه دون حوائج الناس، ولا يتخذ حاجباً"(11).

أمّا في العهد الأموي فقد اعتمد على مضمرات الخيل. كما أن هذا الخليفة استحدث ديوان الرسائل والكتابة. وكان الذين يختارهم هم الأقرب إليه نسباً وأكثرهم أمانة وحرصاً، ومن أجل ذلك فقد أستحدث أيضاً ديوان الخاتم حتى لا تخرج التوقيعات بدون ختم فلا يعلم ما تحتويه من أسرار أحد غير الخليفة فلا تتعرض هذه التوقيعات للتزوير والتعديل، كان ذلك بعد أن زوّر عمر بن الزبير عطاء معاوية لمصلحته. وأمر معاوية أيضاً أن تحزم الكتب ولم تكن تحزم من قبل(12).

وقد نظمت شؤون البريد في عهد معاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان. ويقال أن هذا هو أول من وضع البريد على رواية القلقشندي حين خلا وجهه من المحكمة، فأمر أن لا- يحجب عنه صاحب البريد في أي وقت في الليل أو في النهار، ومركز صاحب البريد هو العاصمة وله نواب وعيون ينتشرون في كل أنحاء الدولة يأتونه بالأخبار، وربما حمل الهدايا. ويُذكر أن الوليد بن عبد الملك أمر أن يحمل إليه الفسيفساء وهي الفصوص المذهبة إلى دمشق ليصفح بها حيطان مسجد دمشق ومكة والمدينة والقدس(13).

### الدواوين في العهد العباسي

لم تكن الدواوين في العهد العباسي أو الأموي في الصورة التي بلغت في العصر العباسي، ليس لأن هذا إتسع جغرافياً بل على العكس، حصل تقلصات في عهد العباسيين عما كان عليه العهد الأموي، فقد انفصلت الأندلس، وانفصلت إمارات أخرى لكنها حافظت على التبعية الإسمية للخليفة ثم كانت الخلافة الفاطمية، حتى يخال إليك أنه لم يبق للعباسيين سوى بغداد وبعض بلاد الشام والحجاز في العصور المتلاحقة التي عُرفت بعصر الضعف والانحلال.

فالعباسيون أخذوا من حضارة الفرس واتفقوا بصفاتهم أكثر من ذي قبل وأخذوا عنهم التنظيم والإدارة، هذه الإمبراطورية العربية الإسلامية كانت تتشكل من ولايات مركزيتها بغداد، وفي عصور الانحلال لم يبق لها إلا صفتها الاعتبارية كالخطبة للخليفة في المساجد أيام الجمعة في الإمارات المنفصلة. أما الدواوين في هذا العصر فاستمرت مركزيتها في العاصمة، ولكل ولاية ديواناً تدار شؤونه من المركز، وهي بالتالي أشبه بدولة اتحادية(14) من حيث الدواوين وتعددتها.

والغالب على العصر العباسي الأول الذي أطلق عليه المؤرخون عصر الإزدهار، شخصية الوزير إلى جانب الخليفة الذي مارس وظيفة مستشار للخليفة مع أصحاب الدواوين وكان النظام الإداري في هذا العصر نظاماً مركزياً(15)، والولاية لم يتمتعوا بالسلطة التي مارسها ولاية بني أمية، فقد اقتصر عمل الوالي على الصلاة وقيادة الجند مع أن معظم هؤلاء كانوا من أفراد البيت العباسي أو من كبار أنصار الدعوة العباسية(16). والأجهزة الإدارية أكثر تطوراً من ذي قبل تقوم على قواعد محددة ثابتة. وفي النهاية الخليفة رأس الحكم ومصدر السلطة والإدارة، إلى أن أصبحت الأعباء كبيرة ومرهقة فاضطر الخليفة إلى تعيين موظفين يعاونون الوزير في الإشراف على الدواوين المختلفة.

بطبيعة الحال تتعدد الدواوين في إمبراطورية واسعة جداً تمتد على مساحة جغرافية هائلة، تتعدد فيها المذاهب والنحل والأجناس والأعراق والأثنيات، وجيوش كبيرة محاربة وغازية ومرتببات للجند وضبط شؤونهم ومراتبهم. فقد كان النظام الإداري في دولة بني العباس الواسعة من حيث توزيع العمل يوازي ويساوي أحسن النظم الحديثة في تاريخنا المعاصر. فهي أي الدواوين تشبه وزارات الدولة في عصرنا الحاضر، تناولت: الخراج، والدية، الزمام، الجند، الموالي والغلمان، البريد، زمام النفقات وهو يشبه ديوان المحاسبة اليوم، ويعتبر من أهم الدواوين، أنشئ في عهد الخليفة المهدي الذي عهد إليه جمع الضرائب، وتقديم حساباتها. وهناك دواوين رفيعة الشأن مثل ديوان النظر وهو من أربعة أقسام: ديوان الجيش وفيه الإثبات والعطاء، ديوان الأعمال ويتوالى الرسوم والحقوق، ديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل، وديوان بيت المال وينظر في الدخل والخرج، وهناك دواوين أخرى مثل الرسائل والحوائج والأحشام والمنح والأكرة للإشراف على الترع والجسور وشؤون الري.

وفي عهد الخليفة المعتضد، تم تطوير آخر للدواوين، بعد أن ضمَّ جميع دواوين الإمبراطورية وألف منها ديواناً سماه ديوان الدار وله ثلاثة فروع: ديوان المشرق وديوان المغرب، وديوان السواد، أي العراق، يدير هذه الدواوين شخص واحد والأصول كلها في يد رئيس واحد اعتباراً من عام 300هـ بحيث أصبحت البلاد تخضع لإدارة ما يشبه الوزارتين أحدهما داخلية وهي ديوان الأصول، ووزارة ثانية للمالية، ويلاحظ أن لكل ديوان أقسام وأجزاء كثيرة تسمى أيضاً دواوين من دون أن يكون هناك حدود وفواصل بينها. وقد بلغ عددها منذ عهد الخليفة المعتضد عشر دواوين(17).

## الدواوين في عصور الإنحلال

على حين أننا لم نعد نجد منذ القرن الرابع الهجري بين قواد الجيش إلا أسماء قوم من الموالي. فإن وظائف الدواوين كانت وقفاً على الأحرار، وكان الفرس هم شحنة دواوين الخلافة، فمنهم البرامكة وآل ذي الرياستين، وأتصف الفرس في الإدارة والدواوين فهي موروثه عندهم. وهي من صفاتهم القديمة وكانت الصبغة الغالبة على عمال الدواوين هي الصبغة الاقتصادية، تتوفر فيهم بعض صفات وخصال التاجر، وكان الفارسي أمهر تاجر في المملكة الإسلامية(18).

وامتاز موظفو الدواوين في العصر العباسي بصفات مميزة عن الأعصر السابقة لهم من حيث اختلاف عملهم عن عمل الفقهاء والعلماء والمشتغل في هذه الإدارة يجب أن يكون متقفاً وممثلاً للثقافة الأدبية، فهو لا يعالج الأمور الشرعية إلا بمقدار ما يتطلبه عمله وثقافته، وكانت هناك شارات تميز بينهما. فموظف الديوان يرتدي الدراعة في حين يرتدي العالم الطيلسان. وكان الخلفاء العباسيين لا يقحمون العلماء أصحاب الطيالس بالعمل في الديوان، وقد اعتبر الخليفة المقتدر أن ذلك فضيحة عند ملوك الإسلام والكفر. لذلك كان العمل في الدواوين ملجأً ملائماً للأدباء الذين لم ينشأوا في الأوساط الدينية. لكنه تفتت في مهنة الديوان أمراضاً سيئة ففي العصر العباسي علاوة على الصفة التجارية، فقد لعب المال دوراً سيئاً في حياة موظفي الدواوين، وكان الموظف يحصل على عمله بالرشوة خصوصاً مناصب الدواوين، ومتى تقلد عمله هذا يعمل على إسترداد "الرشوة" بشتى الوسائل والسبل، كأن يعينون موظفين رمزياً، وأرزاقاً لأناس لا وجود لهم أو يقيدون أموالاً لفقهاء وكتاب ومرتببات لغلمان، أو يصرفون ما يعرفون اليوم بالفواتير الوهمية. ويقول آدم ميتز "ونادراً ما كان الرأي العام يعتبر قلة الأمانة في إدارة الدواوين شيئاً يخل بالشرف"(19). مما يدل على إنتشار الفساد في أجهزة الدولة فعمد بعض الولاة إلى قانون المصادرة وأن الأخشيد صاحب مصر، هو أول من نكب عماله وكتّابه مراراً، وكذلك فعل الحاكم بأمر الله الفاطمي بقانون المصادرة.

وأدى طلب الوظيفة إلى فساد من نوع آخر، وهو التهافت على الألقاب، وأول من ابتدئها الفضل بن سهل وزير المأمون، فكتب الدعاء في رسائله، وكتب إلى عماله: أعزك الله ومدّ في عمرك وأتمّ نعمته عليك وإحسانه إليك إلى أن ذاع خطاب سيدنا أو مولانا، والصاحب الجليل، أو مولاي ورئيسي إلى آخره مما نقله آدم ميتز عن الجهشياري وغيره.

\*\*\*\*\*

### الهوامش:

(\* باحث وأكاديمي من سورية.

1- راجع الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية.

- 2- ابن خلدون، المقدمة، دار احياء التراث العربي، ص243.
- 3- البلاذري، فتوح البلدان، ص201.
- 4- محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، مج 1، ج4، ص195.
- 5- ابن خلدون، المقدمة، المصدر نفسه، ص244.
- 6- أبو حسن علي بن محمد الماوردي، الأحكام السلطانية، ص191.
- 7- ابن خلدون، المقدمة، المصدر نفسه، ص241.
- 8- محمد اسعد طلس، المصدر نفسه، مج 1، ج2، ص131.
- 9- السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، دار النهضة، بيروت، ص523.
- 10- محمد أسعد طلس، المصدر نفسه، مج1، ج2، ص128.
- 11- آدم ميتز، الحضارة الإسلامية، تعريب محمد عبدالهادي أبو ريده، دار الكتاب العربي، مج 1، ص161.
- 12- السيد عبدالعزيز سالم، المصدر نفسه، ص680.
- 13- محمد اسعد طلس، المصدر نفسه، مج1، ج4، ص201.
- 14- آدم ميتز، المصدر نفسه، ص147.
- 15- حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج2، ط7، 1964م، ص265.
- 16- عبدالعزيز الدوري، العصر العباسي الثاني، ص63.
- 17- آدم ميتز، المصدر نفسه، ص148.
- 18- آدم ميتز، المصدر نفسه، ص159.
- 19- آدم ميتز، المصدر نفسه، ص163.